سورة النصر

وتسمى سورة التوديع لما فيها من الدلالة على توديع الدنيا وهي آخر سورة نزلت قاله ابن عباس مدنية، هي ثلاث آيات وثلاث، عشرون كلمة، تسعة وسبعون حرفاً

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللهِ} إن كان نزول هذه السورة قبل فتح مكة، ف «إذا» ظرف مستقبل جوابه فسبح، فإن كان النزول بعد الفتح ف «إذا» بمعنى إذ التي للماضي، فهي على هذا متعلقة بمقدر، أي أكمل الله الأمر وأتم النعمة إذ حصل إعانة الله تعالى على عدوك، {وَٱلْفَتْحُ} أي فتح مكة، وهو الفتح الذي يقال له: فتح الفتوح، وكان لعشر مضين من شهر رمضان سنة ثمان، فقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة ومعه عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار، وطوائف العرب إلى أن نزل بمر الظهران، وقدم العباس وأبو سفيان إليه، فاستأذنا، فأذن لعمه خاصة، فقال أبو سفيان: إما أن تأذن لي، وإلا أذهب بولدي إلى المفازة، فنموت جوعاً وعطشاً، فرق قلبه، فأذن له وقال له: «ألم يأن أن تسلم وتوحد؟» فقال: أظن أنه واحد ولو كان ههنا غير الله لنصرنا، فقال: «ألم يأن أن تعرف أني رسوله؟» فقال: إن لي شكاً في ذلك، فقال العباس: أسلم قبل أن يقتلك عمر فقال: وماذا أصنع بالعزى؟ فقال عمر: لولا أنك بين يدي رسول الله لضربت عنقك، فقال: يا محمد، أليس الأولى أن تترك هؤلاء الأوباش، وتصالح قومك وعشيرتك، فسكان مكة عشيرتك وأقاربك وتعرضهم للشن والغارة، فقال صلى الله عليه وسلم: «هؤلاء نصروني وأعانوني وذبوا عن حريمي، وأهل مكة أخرجوني وظلموني فإن هم أسروا فبسوء صنيعهم». وأمر العباس بأن يذهب

به ويوقفه على المرصاد ليطالع العسكر، ثم تقدم أبو سفيان ودخل مكة وقال: إن محمداً جاء بعسكر لا يطيقه أحد ولما سمع أبو سفيان أذان القوم للفجر وكانوا عشرة آلاف فزع من ذلك فزعاً شديداً، وسأل العباس، فأخبره بأمر الصلاة، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة على راحلته ولحيته على قربوس سرجه، كالساجد تواضعاً وشكراً، ثم التمس أبو سفيان الأمان فقال: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن». فقال: ومن تسع داري فقال: «ومن دخل المسجد فهو آمن» فقال: ومن يسع المسجد فقال: «من ألقى سلاحه فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن»، ثم وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على باب المسجد وقال: «لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده» ثم قال: «يا أهل مكة ما ترون أني فاعل بكم»، فقالوا: خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم فقال: «اذهبوا، فأنتم الطلقاء»، فأعتقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كان الله تعالى أمكنه من رقابهم عنوة، وكانوا له فيئاً، فلذلك سمي أهل مكة الطلقاء، ثم بايعوه على الإسلام، وأقام صلى الله عليه وسلم في مكة خمس عشرة ليلة، ثم خرج إلى هوازن.

وقرىء «فتح الله» و «النصر». {وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوٰجاً}، أي وأبصرت الناس يدخلون في ملة الإسلام جماعات كثيفة كأهل مكة، والطائف، واليمن، وهوازن، وسائر قبائل العرب، وكانوا قبل ذلك فيه واحداً واحداً، واثنين اثنين. وقرىء «يدخلون» على البناء للمفعول {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ}. أي فقل سبحان الله حامداً له، {وَٱسْتَغْفِرْهُ} أي واطلب غفرانه هضماً لنفسك واستقصاراً لعملك، واستعظاماً، لحقوق الله، واستدراكاً لما فرط منك من ترك الأولى، وكأنه تعالى يقول: إذا جاء نصر الله إياك والمؤمنين، والفتح، ودخول الناس في دينك فاشتغل أنت بالتسبيح والحمد والاستغفار {إِنَّهُ كَانَ تَوٰبَا} أي إنه تعالى يكثر قبول التوبة لكثير من التائبين،

والتوبة اسم للرجوع والندم، والإنسان قد يقول: أستغفر الله وليس بتائب، فيكون كاذباً ـ وكان تقدير الكلام: واستغفره بالتوبة، وفي هذا تنبيه على أن خواتيم الأعمال يجب أن تكون بالتوبة والاستغفار، وكذا خواتيم الأعمار.

وروي أنه صلى الله عليه وسلم لم يجلس مجلساً إلا ختمه بالاستغفار. وعن عائشة: كان نبي الله في آخر أمره لا يقوم ولا يقعد، ولا يذهب، ولا يجيء إلا قال: «سبحان الله وبحمده» فقلت: يا رسول الله إنك تكثر من قول سبحان الله وبحمده؟ قال: «إني أمرت بها» وقرأ {إِذَا جَاء نَصْرُ ٱللَّهِ}. وعن ابن مسعود لما نزلت هذه السورة كان صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول: «سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي إنك أنت التواب الغفور».

قال مقاتل: لما نزلت هذه السورة قرأها النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه، وفيهم أبو بكر وعمر، وسعد بن أبي وقاص والعباس، ففرحوا، واستبشوا، وبكى العباس فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «ما يبكيك يا عم» قال: نعيت إليك نفسك، أي أخبرت بموتك قال: «إنه كما قلت»، فعاش بعدها ستين يوماً ما رؤي فيها ضاحكاً مستبشراً، وعن ابن عمر نزلت هذه السورة بمنى في حجة الوداع، ثم نزل {ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى} (المائدة: 3) فعاش النبي صلى الله عليه وسلم بعدها ثمانين يوماً، ثم نزلت آية الكلالة، فعاش بعدها خمسين يوماً، ثم نزل لقد جاءكم رسول من أنفسكم، فعاش بعدها خمسة وثلاثين يوماً، ثم نزل {وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ} (البقرة: 182) فعاش بعدها أحداً وعشرين يوماً، وقيل: أحد عشر يوماً، وقيل: سبعة أيام والله أعلم، وتوفي صلى الله عليه وسلم في ربيع الأول لاثني عشر خلت منه من هجرته إلى المدينة والهجرة، كانت لاثني عشر خلت من ربيع الأول كما أن مولده كذلك على المشهور.